

تَحْقِيقَاتٌ لِعَفْوِيَّة

الأستاذ

عبد القادر زمام

في مقال سالف تحدثنا عن كلمات : الشكازة والشكاز . والحوالة . والوادي بمعنى النهر والنسبة الى مقرة ... !

وفي هذا المقال نتابع الحديث بالكلام على : المصاراة والمسرة ... !

الاولى : الدلالة الحقيقية لهذه الكلمة .

الثانية : الرسم الصحيح لكتابتها

ولنبدا في النقطة الاولى ... بالاشارة الى بعض الكتب الاندلسية التي استعمل مؤلفوها كلمة المصاراة لنرى مدلولها هناك ... !

— مؤلف الكتاب المسمى (باخبار مجموعة) يستعمل كلمة المصاراة باعتبارها اسم مكان معين يقع خارج عاصمة قرطبة ... ! جرت فيه عدة احداث ومعارك بين عبد الرحمان الداخل الاموي ... وبين محاربيه قبل أن يتم له الامر ... !

بل اننا نجد مؤلف هذا الكتاب يذكر المصاراة في اخبار ثعلبة بن سلامة سنة 124 هـ . قبل مجيء عبد الرحمان الى الاندلس ... وقد اقام ثعلبة هذا سوقا عند المصاراة ... وبيع بها اسراة من خصومه المغلوبين ... !! (1)

— ومؤرخ الاندلس ابو مروان ابن حيان القرطبي (377 هـ — 469 هـ) يذكر المصاراة عدة مرات

المصاراة : كلمة معروفة ومستعملة في كتب المؤرخين والجغرافيين الاندلسيين . كما انها معروفة ومستعملة في المغرب نجدها في عدة مصادر تاريخية مخطوطة ومطبوعة سنشير اليها فيما بعد ... !

والمعنى الاجمالي الذي يتبادر الى ذهننا لهذه الكلمة . عندما نجدها في النصوص الاندلسية والمغربية هو انها تعني عند الذين يستعملونها في كتاباتهم ... الفضاء الفسيح الذي يقع خارج المدن الكبرى وتحيط به الجنات والحقول مما يجعله معدا لاقامة المهرجانات والافراح العامة .. والتمتع بجمال الطبيعة في فصل الربيع ... !

لكن هذا المعنى الاجمالي الذي ندركه من خلال الاستعمال . لا يكفي في ميدان التحقيق اللغوي الذي يحدد المعاني بدقة . استنادا على نصوص معجمية . او استعمالات اصطلاحية معينة ... !

لذا كان البحث هنا في هذه الكلمة منصرفا الى نقطتين :

(1) اخبار مجموعة ... ص 45

فإذا اطلق الاندلسيون كلمة (المصاراة) على الفضاء الفسيح المحيط بمدينة من مدنها الكبرى المشتمل عادة على الحقول والجنات والياديين الواسعة ... فان ذلك ضرب من ضروب المجاز اللغوي المعروفة المستعملة في فصيح اللغة ...!

أما إذا كان هذا الفضاء مستعملا كلا أو بعضا لعدو الخيول وسباقها بالفعل ...! فان الإطلاق يكون إذ ذاك حقيقة لغوية ... لا مجازا ...!

وبهذا ظهر ان كلمة (المصاراة) لها أصل لغوي صحيح . وان الاصطلاح الاندلسي مبني على هذا الأصل ...! فلا مجال فيها للتوقف ...! لا من جهة الأصل ...! ولا من جهة الدلالة ...!

وفي المغرب نجد الكلمة مستعملة عند عدد من المؤلفين . الا اننا سنشير الى بعض النصوص التي وردت فيها على سبيل المثال لا على سبيل الاستقصاء ...!

— مؤلف كتاب : (روض القرباس) يقول : « ويحصد الزرع بفحص المصاراة — كذا — التي بخارج باب الشريعة من أبواب عدوة القرويين عن أربعين يوما ...! وقد شاهدت الزرع حرث بالمصاراة المذكورة في خامس عشر من شهر أبريل . وحصد في آخر مايه ...!! » (5)

— ونجد الروض المربني المسمى بـ «روض المصاراة مذكورا في عدة مصادر كتبت بأعلام اعلام ذلك العصر .. ومن بعدهم ..!

— فابن الخطيب في (نفاضة الجراب) يذكر جنة المصاراة ويعبر عنها مرة أخرى بروض المصاراة. ويصف المهرجانات والاحداث التي شاهدها هناك ...! (6)

— وابن خلدون في (العبر) يذكر روض المصاراة الذي انزل به أبو الحسن المربني ضيفه ابن الاخير وكان هذا الروض لصق دار أبي الحسن ...! كما يقول ابن خلدون ..! (7)

وذلك في القسم المطبوع من كتابه (المقتبس) في بيروت 1965 م ... وذكر أبو حيان في القسم المذكور استقبالات كبرى جرت في مصارة قرطبة احتفالا بضيوف الاندلس الوافدين على عاصمتها إذ ذاك ...!! (2)

كما ذكر أشياء أخرى وقعت في هذه المصاراة ...!

وفي هذا الكتاب وفي غيره نجد مصالحي المصاراة (3) لكن المصاراة ليست موجودة في قرطبة

وفي هذا الكتاب ليست موجودة في قرطبة وحدها بل ان هناك عدة مدن اندلسية نجد فيها مصارات أخرى لا غرض لنا باستقصائها الآن ...!

ويكتفينا الآن أن نرجع الى القسم المطبوع من كتاب (ترصيع الاخبار وتنويع الآثار) الذي ألفه الجغرافي الاندلسي احمد بن عمر العذري المعروف بابن الدلائي لنجد فيه خبرا عن : « وتيقعة المصاراة بلورقة » (4) باقليم مرسية ، وذلك تاکد لنا ان

(المصاراة) ليست علما على موضع خاص في قرطبة ...! بل هي « اصطلاح » اندلسي عرف واستعمل عند الاندلسيين منذ سنواتهم الاولى ... حتى صار لكل مدينة كبرى هناك مصارة ...!

ولابد ان نتساءل عند البحث ... عن الكيفية اللغوية التي نشأ بسببها هذا الاصطلاح هناك ...! وعند الرجوع الى (تاج العروس) نجد هذا النص اللغوي :

« مضر الفرس كعني استخرج جريسه ..! والمصاراة بالضم الموضع الذي تمصرف فيه الخيل ...! »

فالمادة لغوية معجمية ما في ذلك من شك ...! والمعنى اللغوي لكلمة المصاراة كما شاهدنا في النص . هو الميدان الذي تطلق فيه الخيل لاجل العدو والسباق واستخراج الطاقة الحيوانية .

ومن شأن الميدان المعد لذلك أن يكون خارج المدينة في فضاء فسيح ...!

(2) الارقام المذكورة في فهرسة القسم المذكور ...!

(3) ابن عذاري ج 2 ص 199

(4) نصوص الاندلس ص 5 معهد الدراسات الاسلامية بهدريد 1965 م

(5) الجزء الاول ص 59 . ط . الرباط 1936 م وانظر أيضا ص 54 من نفس الجزء ...!

(6) نفاضة الجراب ص 184 و 213 و 217

(7) العبر ج 7 ص 531 . ط . بيروت 1959 م

وغني عن التأكيد اننا هنا بصدد البحث عن
(كلمة) المصاراة .. ! لا عن (موضع) المصاراة ...

واشتهرت هذه الكلمة في عصر بني مرين وفي
الوثائق المتعلقة بعاصمتهم ... ومن أجل ذلك تداولتها
اللسنة والاقلام طوال قرون بعدهم . واستمر ذلك الى
الآن ... ! في الوثائق الخطية المتعلقة بالاملاك التي
كانت تجاور المصاراة لمعينين أو للاحياس ..!

ولا شك ان رسم الكلمة رسما صحيحا يتوقف
على استحضار أصلها اللغوي ومعرفته ... ! فاذا نسي
هذا الأصل أو أهمل .. ! فان الكلمة تأخذ طريقا أو
طرقا الى التحريف والتصحيف ... ! وهذا ما حدث في
كلمة المصاراة ...

وقد وصلنا الآن الى النقطة الثانية ... وهي
الرسم الصحيح لكتابتها ... !

ونشير هنا الى اننا لاحظنا في الوثائق التي مرت
إمام أعيننا « وجلها من الصكوك المخطوطة » ان هناك
من يكتبها ... المصاراة .. ! (بالصاد) ومن يكتبها
المسارة .. ! (بالسين)

ولا يبعد أن يكون غيرنا قد اطلع على رسمها
رسما ثالثا أو أكثر .. !

— وفي مقدمة (جذوة الاقتباس) لابي العباس
ابن القاضي نجد ناسخ الكتاب كتب المصاراة هكذا
« جنات المسارة » بالسين .. !

ولا شك ان ما قدمناه كاف لاتعانا ان رسم
الكلمة الصحيح لغة واصطلاحا هو (المصاراة)
بالصاد ... لا بالسين .. !

والغريب ان هذا التصحيف الذي لمساته فيها
يرجع للمصاراة المغربية في عاصمة بني مرين قد لحق
المصاراة الاندلسية في عاصمة الامويين .. ! بناء على
ما جاء في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية
بمدريد ... ! (8)

وننتقل الى كلمة — المسرة —
ففيها يرجع الى الدلالة اللغوية نجد المسرة
مصدرا ميميا للفعل سر ... ! كما نجد اسمها لأطراف
الرياحين ... (9)

(8) المجلد الثالث عشر مدريد 1965 م — 1966 م

(9) اعتدنا على تاج العروس في المادة ..!

(10) انظر من الصفحات 67 و 86 و 94 .

اما في المسوع بين الناس في المغرب . وكذلك
في بعض الكتب التاريخية فان المسرة تعني جنة فيحاء
من جنات مراكش الحمراء وقد استست هذه الجنة
وغرست وجرت اليها المياه على عهد الموحدين ..!

وعلى المنهاج الذي سرنا عليه فاننا نبحت
عن (كلمة) المسرة ... ! لا عن (موقعها) أو (صفاتها)
التي ذكرها المؤرخون .. ! أو بعبارة أوجز وادق .. فاننا
نبحت عن الاسم لا عن المسمى ... !

فهل سمى الموحدون منشآتهم التي غرسوها
بأنواع الاشجار والرياحين في مراكش بهذا الاسم
— المسرة — فعلا ... ؟؟

ومع اعترافنا من الناحية اللغوية بصحة تسمية
الرياض وما في معناها باسم المسرة . لكونها ظرفا
للسرور الانشراح ... أو سببا من اسبابها . أو لغير
ذلك من العلاقات .. ! فان البحث هنا منصرف الى شيء
آخر ... وهو كما قلنا آنفا : ..

— هل سمى الموحدون منشآتهم التي غرسوها
بأنواع الاشجار والرياحين في مراكش بهذا الاسم
— المسرة — فعلا .. ؟؟

ونؤكد اننا لا نشك ان الموحدين جملوا عاصمة
الامبراطورية الكبرى بعدد من الحدائق والجنات
والتصور والمساجد والبرات ... !

ولكن هناك فرقا بين « انشاوا » وبين « سموا »
ونحن نبحت عن الثانية دون الاولى ... دفعا لكل
التباس ..!

فالمؤرخون الذين تناولوا تاريخ مراكش وهم
كثيرون يذكرون « المسرة » باعتبارها من منشآت
الموحدين ونكتفي هنا بالإشارة الى المقدمة الحافظة
لكتاب « الاعلام بمن حل مراكش وأغيات من الاعلام »
لمؤلفه القاضي عباس ابن ابراهيم رحمه الله ... !

فاننا نجد فيها نقلا عن المؤرخين .. ان عبد المومن
« انشا » المسرة ... ! التي يظاها جنان الصالحة ...
كما نجد ان عبد المومن « انشا » المسرة وهي البستان
الذي « جده » المنصور الذهبي ... ! (10)

وبحثنا — جهد الامكان — منذ مدة في المصادر
والكتب التي لابس مؤلفوها دولة الموحدين وعرفوها

عاصبتهم مراكش . ومنهم من سكنها فعلا في العصر
الموحدي ... ! فلم نجد فيها تسمية ما انشاء الموحدون
هناك باسم « المسرة » ولا باسم « المصار » .. !!
بل وجدنا اسماء اخرى لا غرض لنا بذكرها الآن ... !

واهم هذه الكتب الموحدية هي :

— الاستبصار في عجائب الامصار

— المعجب في تلخيص اخبار المغرب

— القسم المنشور من نظم الجمان لابن القطان .

— تاريخ المن بالامامة لابن صاحب الصلاة

— مجموع رسائل موحدية

— كتاب المؤرخ البيدق

بل اننا نجد المؤرخ البيدق يذكر في كتابه : اخبار
المهدي . ان عبد المؤمن كلف اميرا من امراء الاندلس وهو
احمد بن ملحان .. ؟ ملك وادي آش .. ! بتنسيق بستانه
العظيم الذي انشاء بمراكش وهذا البستان يسميه
البيدق « شنطولية » (11) .

فهل جاعتنا كلمة « المسرة » التي نراها عند
بعض المؤرخين من تعريب كلمة « شنطولية » التي
حافظ لنا عليها المؤرخ البيدق .. ؟؟

ولا بد لنا هنا من تطبيق القاعدة المعروفة في
الابحاث العلمية وهي :

— ان عدم الوجدان لا يقتضى عدم الوجود ... !

فاذا لم يتيسر لنا الآن الاطلاع على نص موحدي
فيه كلمة « المسرة » فمن الجائز ان غيرنا من الباحثين
— مستشرقين أو عرب — قد اطلعوا عليه فعلا .. أو
سيطلمعون عليه في مخطوط أو مطبوع ... !!

اذ ان من السهل ان يثبت الباحث شيئا وقف على
نص يثبته ... ولكنه من الصعب ان ينفي شيئا لم يجد
له نصا ... !!

هذا اذا كان يحترم منطق العلم ... !

ويطبق آداب البحث ... !

(11) اخبار المهدي ابن تومرت ص 120 . ط باريز 1928 م .

(12) الجزء الثاني ص 10 و 22

(13) المصدر السابق ص 55

(14) النفع ج 7 ص 80 و 81 . ط . بيروت وزهرة الاس ص 25 ط . الرباط

واذا كان المؤرخون الذين كتبوا مؤلفاتهم بعد
عصر الموحدين قد استعملوا كلمة « المسرة » فيما
يرجع لمنشآت الموحدين بمراكش ... ! فانهم استعملوا
كلمة « المصار » فيما يرجع لمنشآت المرينيين بفاس ... !

ولكن لا ينبغي ان نستنتج من ذلك نتائج جزافية
أو نفرض فروضا خيالية لا سند لها من النصوص ...
لهذا كان من اللازم ان نتابع البحث الذي بدأناه ...
ونسير به في كتب المتأخرين كما فعلنا في كتب المتقدمين

— فالمؤرخ اكنسوس في (الجيش العرمرم) وهو
خبير بتاريخ مراكش وفاس .. يذكر في كتابه ...
مسرة الموحدين بمراكش (12) كما يذكر مسرة فاس ... !
ويقول عن هذه الأخيرة بالحرف : « وإما المسرة
فليست الا على ضفة نهرها المطرد ... ! » (13)

فمن مسرة مراكش فان كلام اكنسوس يدخل في
عموم كلام المؤرخين الذين كتبوا مؤلفاتهم بعد عصر
الموحدين ... ! حيث اننا نحفظنا ونحتفظ الى ان نجد نصا
موحديا يسمي منشآت الموحدين «مراكش باسم
(المسرة) فعلا ... !

وعن مسرة فاس ... ؟

فان الامر يستدعي ان يقوم دليل يدل على ان
هناك بفاس شيئين اثنين :

(المصار) التي تحدثت المصادر عنها كما
شاهدنا ذلك في النصوص السابقة ... !

(والمسرة) التي ذكرها اكنسوس ... ! والحالة
هذه . ونحن لحد الآن ... لا نعرف الا الاولى ... !

— والمؤرخ الواعية ابو العباس المقرئ حدثنا في
كتابيه : روضة الاس ... ونفع الطيب عن روض
المسرة الذي هو ثالث مصانع المنصور الذهبي .. (14)

البديع ... ! والمشتهى ... ! والمسرة ... ! والظاهر
انها كلها بمراكش ... !

ويقول المقرئ ان المنصور الذهبي وري بمصانعه
الثلاثة في بيتين انشدهما ..

بستان حسنك (أبدعت) زهراته
ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى

وقوام غصنك (بالمسرة) ينثني
يا حسنه رمانة (للمشتهى)

فالمنصور الذهبي المتوفى سنة 1012 هـ حينما
سمى أحد مصانعه العظمى بهراكلش .. باسم (المسرة)
كان يعبر عن رغبة خاصة ! كالرغبة التي دفعته
ليسمي المصنعين الآخرين باسم (البديع) و
(المشتهى)

ولهذا تكون (مسرة) الذهبي بهراكلش امرا
واقعا ليس له من دافع .. !

اما (مسرة الموحدين) بهذا الاسم فتحتاج في
راينا المتواضع الى نص موحد يثبت ان الموحدين
استعملوا هذا الاسم .. !!

(15) ازهار الرياض ج 2 ص 316

والذي يزيدنا اطمئنانا على هذا (التحفظ) الذي
تحفظنا به في شأن كلمة (المسرة) هو ان ابا العباس
المقري كان متمكنا من معرفة الاسماء والمسميات في
الموضوع ...

فقد وجدناه يفرق بين (روض المسرة) الذي هو
من مصانع المنصور الذهبي بهراكلش .. ! فيكتب
(المسرة) هكذا بالسين وبدون ألف ... كما في النص
الذي اشرنا اليه قبل في نفح الطيب وروضة الأس ...

وبين (قصر المصارة) بفاس الذي هو من
منشآت المرينيين فيكتب (المصارة) بالصاد بعدها
الف ... كما هو الصواب .

وتد حدثنا المقري عن قصر المصارة المريني
وروى لنا شعر ابن خبیس الذي سمعه ابو عنان في
هذا القصر ... ! (15)